الإقناع والتأثير في زمن قصير

"التربوي القائد أنموذجاً"

إعداد

د/ حمدي حسن أيوب

أستاذ التربية الاسلامية المساعد، كلية التربية بالقاهرة، جامعة الأزهر

الإقناع والتأثير في زمن قصير "التربوي القائد أنموذجًا"

في أولى محاضراتي كطالب بالفرقة الأولى بكلية التربية عام ١٩٩٨م؛ دخل المدرج أستاذ جامعي يرتدي (بالطو أبيض)، عليه من الهيبة والجدية مع الابتسامة والأسلوب الشيق والصوت المميز ما يلفت الانتباه ويخطف منك حسن الإنصات.

وبدأ الأستاذ محاضرته معلنًا أنه كعميد للكلية يحرص على أن يدرّس لطلاب الفرقة الأولى حتى يكون أكثر قربًا منهم ويعرف مشكلاتهم ويجيب عن تساؤلاتهم، وهكذا أرسى الأستاذ فكرة أن المنصب (تكليف ومسئولية) فـ (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُم مَّسْئُول)، والمسئول ينبغي أن يدرك بقدراته وخبراته أن طالب الفرقة الأولى كـ (الغريب) الذي (أَدْهشه) المكان الجديد، فيحتاج إلى (تَوَدُّد)، وكالتائه الذي تكثر تساؤلاته فيحتاج إلى ناصح وموجه يؤانسه ويوجهه، وليس أجمل من أن يكون التودد والنصح والمؤانسة من (كبير العائلة) عميدًا وأستاذًا، وبهذا نصح مفكرونا الأوائل حين قالوا: "على المعلّم أن يتودّد للغريب القادم على حلقته؛ فإن للقادم دَهشة".

ثم بدأ الأستاذ محاضرته الأولى عن (مفهوم العلم)، و (مهارات الجامعة) التي ينبغي أن نتقنها منذ اليوم الأول بالجامعة، في عرض شيق يجعلك تستمتع بالمحاضرة وتتمنى ألا تنتهي، ولعل أحد أسباب هذا الاستمتاع . إضافة إلى أسلوب الأستاذ الشيق وحسن عرضه . أن البداية بدراسة (مفهوم العلم) تتفق والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وكل ما يتفق مع الفطرة سيستقر في أذهان وقلوب ذوي النفوس السليمة، هذه الفطرة التي يمكن أن نستنبطها من أن الخالق جل وعلا بدأ مع آدم بتعليمه الأسماء كلها، وبدأ سبحانه في تعداد نعمه على خلقه في سورة الرحمن بنعمة التعليم، فقال جل شأنه: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" (الرحمن 1: 4)، وكانت أول كلمة نزل بها الوحي (اقرأ)، فبالعلم ومنه يكون (الانطلاق) نحو (الحياة).

ظلت هذه المحاضرة وما بعدها عالقة في الأذهان، ومؤسسة لعدة مهارات ومبادئ وسلوكيات وقيم ينبغي أن يتقنها الطالب الجامعي، وعدلت كثيرا من مفاهيمنا عن العلم والحياة، وظلت شخصيته ملهمة ومثلا للأستاذ المُبدع غير التقليدي، مؤكدا حقيقة أن المعلم يعلم بسلوكياته قبل علمه مهما كان المحتوى الذي يدرّسه، فما بالك إذا جمع بين حسن الأمرين، (المحتوى، والأسلوب)!

ففي إحدى المحاضرات دخل الأستاذ، والمدرج يضج بأصوات الطلاب، فلم ينطق بكلمة، بل تقدم خطوة إلى الأمام، ثم نظر في أعين الطلاب بثبات، فخفت الصوت تدريجيا إلى أن انتهى وساد الصمت المكان، والكل في حالة تركيز وانتباه وترقب لأول كلمة سينطقها الأستاذ، فإذا به يقول: "الصمت يقابله صمت، تعلم عزيزي الطالب المعلم أنك عندما تكون في موضع المعلم وتمر بنفس هذا الموقف أن تتصرف كما تصرفت، فلا تغضب ولا ترفع صوتك ولا تطلب من طلابك الصمت، فقط اصمت وانظر في عيونهم، فالصمت سيقابله صمت"، وهكذا يتبع الأستاذ أسلوبًا تربويًّا مؤثرًا، هو (التربية بالموقف) بما فيه من تطبيق عملي لمهارة من مهارات المعلم.

وهكذا ظل الأستاذ في كل حركة من حركاته يقدم النموذج العملي التطبيقي للمعلم في إدارة الصف واحترام الوقت وحسن إدارته ومهارة تبسيط المعلومة واستخدام معينات الذاكرة، وغيرها، ظل يقدم النموذج في كل شيء حتى في أبسط الأمور، كمسح السبورة وتقسيمها، ولا زلت استحضر الموقف كأني أراه رأي العين عندما أدار ظهره لنا، ممسكًا (الميكروفون) بيده اليسرى، و (ممحاة السبورة) بيده اليمنى، وشرع في مسح السبورة وهو يقول: "عندما تمسح السبورة حرك يدك اليمنى فقط، واحرص على أن يظل بقية جسدك ثابتًا لا يتحرك"، وكذا لا زلت أتذكر كلامه عن معينات الذاكرة وضرورة تبسيط المعلومة للطلاب، عندما ضرب مثالا بقانون (أوم) في العلوم، واستخدم معينات للذاكرة بصورة ناجحة جعلتني أتذكر هذا القانون حتى الآن بمصطلحاته (التيار، الجهد، المقاومة) رغم أنني لست من هواة العلوم أو من المتخصصين فيه ولم يكن يومًا ضمن اهتماماتي، فدراستي أدبية لغوية ثم تربوية بعيدة عن جمود العلوم وتعقيده من وجهة نظري، ولكن مهارة الأستاذ حولت (الجامد) إلى (سهل ممتع)، والتعلم من مجرد معلومة قد يصيبها (الضمور) إلى بناء ممتد النفع في تطبيق عملي لمبدأ (بقاء أثر التعلم).

في رحلة طلبنا للعلم؛ كثير من المعلمين مروا بنا، لكن قليل منهم مروا فينا، وكثيرون عاشوا معنا، لكن قليلهم عاشوا فينا، كثيرهم علّم، لكن قليلهم ربى، كثيرهم أفاد معلومات، لكن قليل منهم علّم مهارات وطور أفكارًا، ولذا قال المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم: "إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة" (رواه

البخاري)، والراحلة هي البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله على النجابة وتمام الخلق والمنظر، وهي نادرة الوجود في الإبل، وكذا في البشر بصفة عامة وفي كل فئة، هم كالإبل الكثير، لكن (الرواحل) فيهم نادرة الوجود، فما أكثر المعلمين؛ لكن ما أقل المربين المؤثرين ذوي الرسالة، ومن هنا تدرك أن العبرة بـ (الكيف) لا بـ (الكم)، وأن هناك معلم بـ (أمّة).

لم ألتق أستاذي منذ عام 1999م، ولم أتعلم على يديه إلا مادة واحدة في فصل دراسي واحد، وهو لا يعرفني ولم يسمع بي، ومع ذلك ما زلت أتذكر هيئته وملابسه ولهجته وحركاته وأسلوبه وتعبيراته، وظل مقدار تأثيره فيّ وفي زملائي يفوق تأثير التلمذة سنوات وسنوات، في إشارة إلى أن العبرة بـ (التأثير) لا بـ (التلقين) وبـ (العمل) لا بـ (الزمن)، فأبو هريرة . رضي الله عنه . أسلم في العام السابع للهجرة، ولم يلازم الرسول إلا ثلاث أو أربع سنوات فقط، ومع هذا كان أكثر الصحابة رواية للحديث، فمن الصعب أن نضيف إلى أعمارنا أيامًا، لكن يمكننا أن نضيف إلى أيامنا أعمارًا بمدى تأثيرنا وجهدنا في نفع الآخرين، ليظل صاحب الرسالة التربوية حيًّا لا يموت، حيًّا بعلمه الباقي بعد موته، وبطلابه الذين تركهم يُعلّموا ما تعلّموه منه، وبذكراه العطرة بعد وفاته، فالذّكر للإنسانِ عُمرٌ ثَان.

رحم الله الأستاذ الدكتور علي محمد عبد المنعم، أستاذ تكنولوجيا التعليم بكلية التربية جامعة الأزهر، وأسكنه فسيح جناته.

د/ حمدي حسن أيوب
أستاذ التربية الاسلامية المساعد،
كلية التربية بالقاهرة، جامعة الأزهر